المحاضرة الثامنة	رثاء المدن و المماليك في الشعر الأندلسي والمغربي	أبو البقاء الرندي/ابن رشيق المسيلي/ابن العسال
	شعر الاستغاثة والاستصراخ في الأندلس	ابن الأبار/ابن هانئ الأندلسي

أهداف المحاضرة:

1- أن يميز الطالب السمات الفنية البارزة في الشعر الأندلسي والمغربي.

2- أن يطلع الطالب على أبرز قصائد الشعراء في الأندلس والمغرب خاصة غرض رثاء المدن والمماليك.

المراجع:

1. **عصر الدول والامارات (الأندلس) ، د. شوقي ضيف .**
2. **التواصل التفاعلي في سينية ابن الأبار البلنسي أ/ ابتسام بن خراف مجلة الأثر جامعة الحاج لخضر باتنة – الجزائر09 Mai 2010**
3. **الأساليب البديعية المدح في شعر ابن هانئ الأندلسي منير عبيد نجم كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل العدد/20 مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية / جامعة بابل نيسان/2015**
4. **الفن ومذاهبه في النثر العربي (الأندلس والمذاهب الفنية)، د.شوقي ضيف .**
5. **الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الأندلس والمذاهب الفنية)، د.شوقي ضيف .**
6. **عصر الدول والإمارات (ليبيا ، تونس ، صقلية)، د.شوقي ضيف .**
7. **الدولة والمذهب ، د.غسان عبدالخالق .**
8. **الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق .**
9. **تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، محمد رضوان الداية .**
10. **ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه، عبدالكريم خليفة .**
11. **الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمة علي الأوسي .**
12. **مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني، د. غسان عبدالخالق .**

13.الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، محمد رجب بيومي .

14.الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة .

15.الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت .

16.دراسات في الأدب الأندلسي، إحسان عباس وآخرون .

17.بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف ..

رثاء المدن والمماليك:المفهوم والحدود:

كان لطبيعة التقلبات السياسية في الأندلس أثر بارز في إذكاء هذا الغرض حيث كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا منها في المشرق، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين تجمع الصليبيون عازمين على طرد المسلمين وإخراجهم من الأندلس.واللافت للانتباه ها هنا هو أنّ كتب النقد، ما كان منها في النظرية النقدية أو في النقد التطبيقي لم تتجاوز ما قيل في الأقوام والممالك والمدن تجاوزاً تاماً ولم تولِهِ من العناية ما يستحق، أو ما أولت بعض الأغراض الشعرية الأخرى. أما كتب الأدب والمجاميع الشعرية فقد حام بعضها حول هذا اللون الأدبي لكنه تجاوزه، واحتفظ بعضها بقصائد من هذا الباب. ذكر المبرد في (التعازي والمراثي) أنه كان أراد أن يملي أشعاراً من أشعار المحدثين في (ضروب) من المراثي فأشفق من أن يستخفّ بكتابه، مع أن المراثي كثيرة (ولا تنقضي ما كان الناس)، وتكتسب كلمة (ضروب) أهمية خاصة لأنه سبق وذكر قصيدة في (رثاء) البصرة لأحدهم، غير أن النقد لم يلتفت كثيراً إلى ضرب من هذه الضروب كما بيّنا. وما دام الرثاء عند بعض نقادنا من المدح، على أن يذكر في اللفظ ما يدل أنه لهالك، كيف يمكننا أن نعتبر قصائد نكبات المدن جزءاً منه؟ ولو حاولنا تقصي ما ذكر عن الرثاء عند نقادنا القدامى من مصطلح أو شرح له أو أمثلة عنه، لوجدنا ما قدموه لا يتجاوز حالة الإنسان الفرد إلى العمران والحضارة. لقد شكا عبد القاهر من تداخل وغموض بعض المصطلحات والعبارات النقدية حيث تجد الإشارة أكثر من العبارة والتلويح أغلب من التصريح ودعا إلى مراجعة ذلك وتجاوزه، كما لاحظ ابن رشيق اختلاف الناس في الشعر وتخلفهم عن كثير منه بالتقديم والتأخير وبما بوبوه من أبواب مبهمة ولقبوه من ألقاب متهمة ففصل ـ مثلاً ـ بين العتاب والاقتضاء مع أنّ قوماً درجوه فيه، لكنه لم يلتفت في النقد إلى

ما أجبرته الظروف على سلوكه في الإبداع. هكذا نسي أو تناسى غرض النكبة وقد شاءت الأقدار أن يكون صاحب قصيدة في هذا الباب[1]

عطفا على ـ أن بعض علمائنا القدماء حسب إبراهيم حمدان قد انطلق من شعر بكاء الأقوام وهو غرض جاهلي قديم فأطلقوا عليه مصطلح الرثاء لغلبة العنصر الإنساني فيه على ما عداه، ولأن بقايا القصور الخربة كالأطلال التي اعتاد الشعراء (رثاءها) وأولئك الأقوام وتلك الممالك كالأفراد انتهت حياتهم وذهبوا أدراج الرياح. ثم غلب المصطلح على شعر بكاء المدن في العصر العباسي وقد امتزج بكاء المدن ببكاء الممالك في الشعر الأندلسي، ذلك أن كل مدينة كانت تشكل مملكة حين أذنت شمس العرب بالأفول من تلك الديار. وما يزال كثير من الدارسين المعاصرين يستعملون مصطلح (رثاء المدن والممالك). وقد حاول شوقي ضيف في تفريعه لأنواع المراثي (الندب. التأبين. العزاء) أن يضمّن (الندب) ما كان من مراثي الدول والأوطان والمدن. غير أن مصطلح (النكبة) يبقى أكثر التصاقاً وأوفى إشارة وأشمل تعبيراً من مصطلح الرثاء، وفي محاولات بعض نقادنا القدماء وضع مصطلحات أخرى وتفريعها تناسب أنواعاً خاصة من الشعر ما يشفع ذلك ويدفع إليه. [2]

نماذج لرثاء المدن والمماليك: رثاء أم استصراخ؟

يتضمن رثاء المدن في العصر الأندلسي عطفا على الشكوى صيحات الاستنجاد (بقصد إنقاذ ما يمكن إنقاذه)تحمل بعض القصائد قلق الشاعر وحيرته بين البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ثم قراره بالرحيل وهو ليس استسلاما بقدر ما يكون استقراء لحالة الرحيل القصري الذي بانت معالمه من خلال تخاذل الحكام وضعف الهمة وانشغالهم بأمورهم الشخصية ونسيان الغاية الكبرى هو الحفاظ على كيان الدولة ونجد ايضا صدق العاطفة .وعُمْق الشعور بالأسى والحزن والمرارة .والتصوير الواقعي لحال المسلمين .يمزجها بالحكمة الصادقة النابعة من التجارب المريرة . **يقول ابن الأبار**[3]:

---

(1) محمد حمدان: أدب النكبة في التراث، ص

(2)محمد حمدان: أدب النكبة في التراث، ص

(3)وهي في نحو 47 بيتا على بحر البسيط ذكر اِبن خلدون حصار بلنسية للمرة الثانية بداية من مهاجمة الإسبان للمدن الشرقية من الأندلس عندما تملّك صاحب قشتالة مدينة قرطبة و ظفر صاحب أرغون بالكثير من الحصون حول بلنسية و بنى حصنا حولها لإحكام قبضته عليها فاعتزم أميرها زيان بن مردنيش على الخروج من المدينة و التصدي للإسبان واستنفر معه أهل شاطبة و شقر فزحفوا جميعا عليهم و لكن الغلبة كانت للإسبان في يوم عظيم البلاء استشهد فيه الشيخ أبو الربيع بن سالم شيخ المحدّثين بالأندلس(ابن خلدون – المجلد السادس من كتاب العبر – ص 600 – طبعة بيروت 1959.)و عند يوم 5 رمضان من سنة 635 هـ / 21 أفريل سنة 1138 م بدأ خاتمي الأول الحصار المضيق على بلنسية من كل الجهات برا و بحرا فأوفد اِبن مردنيش كاتبه الأديب الشاعر اِبن الأبّار إلى تونس اِستنجادا بأميرها أبو زكرياء الحفصي الذي اِستقبله في محفل كبير حيث أدى ابن الأبار

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

هَبْ لها مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عزُّ النَّصْر مُلْتَمَسا

وَحاش مِمَّا تُعانِيهِ حُشَاشَتهَا فَطَالَما ذَاقَتِ البَلوَى صَبَاحَ مَسَا

يَا للجَزيرَةِ أَضْحَى أَهلُها جَزَراً لِلحَادِثَاتِ وأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسا

في كُلِّ شارِقَةٍ إلْمَامُ بَائِقَةٍ يَعُود مَأتَمُها عِندَ العِدَى عُرُسا

وكُلِّ غَارِبَةٍ إجْحَافُ نائِبَةٍ تَثْنِي الأَمَانَ حِذاراً والسرُور أَسَى

تَقَاسَمَ الرومُ لا نَالَتْ مَقَاسِمُهُم إلا عَقَائِلَها المَحْجوبَةَ الأُنُسَا

وَفِي بَلَنْسِيةٍ مِنْها وَقُرْطُبَةٍ ما يَنْسِفُ النَّفسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسا

مَدائِنٌ حَلَّها الإشْرَاكُ مُبْتَسِماً جَذْلانَ وارتَحَلَ الإيمانُ مُبْتَئِسا

وَصَيَّرَتْها العَوادِي العَابِثاتُ بِها يَسْتَوحِشُ الطَّرْفُ مِنْها ضِعْفَ ما أَنِسا

فَمِنْ دَسَاكِرَ كانَتْ دُونَهَا حَرَساً وَمِنْ كَنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَها كُنُسا

يَا لِلْمَساجِدِ عَادَتْ للعِدَى بِيَعاً ولِلنِّداءِ غَدَا أَثْناءَها جَرَسا

لَهْفِي عَلَيها إلَى استِرجَاعِ فائِتِها مَدارِساً لِلْمَثانِي أصبَحَتْ دُرُسا

يقـوم شـعر الاسـتغاثة علـى اسـتنهاض عـزائم ملـوك المغـرب والمسـلمين لنجـدة إخـوانهم في الأنـدلس أو التصـدي للاجتيـاح الإسـباني. لقـد أعلـن اِبـن الأبار[1] الفـزع و الهلـع منـذ الكلمـة الأولى ذلـك أن المناسـبة تقتضـي

بيعة أهل بلنسية و أنشد قصيدته السينية الشهيرة طالبا فيها النجدة و أوردها ابن خلدون جميعا و قد استجاب الأمير الحفصي للنداء فبعث إليهم أسطوله مشحونا بمدد السلاح و الطعام و المال فنزل بمرسى دانية لكن لم يأت أحد من قبل ابن مردنيش ليتسلمه بسبب صرامة الحصار حول المدينة و شدته

(1) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار1260 – 1199) م، 595 هـ– 658 هـ مؤرخ وشاعر أندلسي ولد بلنسيةبالأندلس، وسط أسرة ذات نفوذ من قرية أوندا .دخل في خدمة بني عبد المؤمن، وفي 635 هـ أوفده زيان بن مردنيش إلى أبي زكريا الحفصي سلطان تونس الذي دخل في خدمته فيما بعد . رحل عن بلنسية لما احتلها الإفرنج استقر بتونس ودخل في خدمة أبو زكريا ولما مات أبو زكريا خلفه ابنه المستنصر فرفع مكانته ثم علم أن ابن الأبار يعيب عليه ونسبت إليه أبيات في هجائه فأمر به فقتل. أشهر

الجد و التصريح دون مداراة أو تلميح فكأن القصيدة جميعا صرخة واحدة أراد بها إبن الأبار و من خلاله الأندلسيون إستنفار الأمير الحفصي. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن مرثية الشاعر ابن الأبار لمدينة بلنسية من المراثي المشهورة في الأندلس، فقد أرسل بها على لسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس.ويحكي هذا النص يأس أهل الأندلس من حكامهم المسلمين ومن ثم توجهوا لطلب النصرة من خارج الأندلس كما تصور حال بلنسية وقد تحولت المساجد إلى كنائس وفرض الكُفر سلطانه على الجزيرة وأن الذي أصاب بلنسية يوشك أن يصيب باقي المدن الأندلسية

مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

ياللمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

ثم يلتفت إلى أبي زكريا سلطان تونس قائلا:

طهّر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا

وأملأ هنيئًا لك التأييد ساحتها جرُدًا سلاهب أو خطية دُعُسا

وهكذا تعد قصيدة إبن الأبار شهادة تاريخية على ذلك الحصار بالإضافة إلى كونها علامة إبداعية لما فيها من صدق الإحساس و براعة الإلتماس فهي تعتبر أنموذجا لشعر الحصار في الأندلس و قد أدت الغرض من صياغتها وإنشادها حيث لبّى الأمير الحفصي مضمونها. فالقصيدة مثال تاريخي واضح وصحيح على قدرة الكلمة على الفعل و التأثير الملموس في مجريات الوقائع بالإضافة إلى تأثيرها الأدبي حيث عارضها شكلا و مضمونا عديد الشعراء بعده ... بل إن هذه القصيدة ما تزال قادرة على إستلهام الواقع العربي المعاصر على مستويات عديدة.

المرجع العقدي والمدحي في بناء تداولية فعل التحريض:

الجانب العقائدي:

إستعمل إبن الأبار التحريض لحثّ الهمة على الإسراع في النجدة فمرّة يعود إلى الجانب العقائدي قائلا :

مؤلفاته التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال الحلة السيراء والمعجم في التراجم، تحفة القادم، الأربعون، درر السِّمط في خبر السِّبط ، يعني الحسين بن علي، كما اشتهر ببراعته في الخط العربي المشرقي

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسـا

و في بلنسية منها و قرطبة ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلّها الإشراك مبتسما جذلان وإرتحل الإيمان منبئســا

و صيّرتها العوادي عائثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

ما للمساجد عادت للعدى بِيعا و للنداء يُرى أثناءها جرســا

و مرة يلجأ إلى المعاني المدحية بما يتخللها من حماسة و فروسية مثل قوله:

ملك تقلدت الأملاك طاعته دينا و دنيا فغشاها الرضى لبســا

مؤيد لو رمى نجما لأثبته و لو دعا أفقا لبّى و ما اِحتبســا

كأنه البدر و العلياء حالته تحف من حوله شهب القنا حرســا

ثنائية الماضي والحاضر:ولم ينس الشاعر ذاته في خضم هذه المناسبة فتذكر موطنه بلنسية بما فيها من جمال طبيعي و حنين لسالف عهوده العذبة بين مرابعها :

و أربُعا غنمت أيدي الربيع بها ما شئت خلع من موشية و كســا

و حال ما حولها من منظر عجب يستوقف الركب أو يستركب الجلسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا و أين غصن جنيناه بها سلسا

لكنّ اِبن الأبّار ما كاد يصرف القول إلى الحنين و إلى نكبة بلنسية و إلى ذكر فضائل الأمير أبي زكرياء حتى نراه يعود إلى التأكيد على غرضه الأصلي والأساسي ألا وهو الإسراع بالنجدة حيث يقول :

يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا

و قد تواترت الأنباء أنك من يحي بقتل ملوك الصُّفر أندلسا

طهّر بلادك منهم إنهم نجس و لا طهارة ما لم تغسل النجسا

و أوطئ الفيلق الجرّار أرضهم حتى يطاطئ رأس كلّ من رأسا

وأنصُر عبيدا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعا تَهمي زكا وخسا

وإضرب لها موعدا بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى !

إن التأكيد على النجدة بالجيش واضحة لكن الأمير الحفصي إكتفى بالمدد من المال و السلاح و الطعام حيث قال إبن خلدون عند آخر القصيدة : (فأجاب الأمير أبو زكرياء داعيتهم و بعث إليهم أسطوله مشحونا بمدد الطعام و الأسلحة و المال مع أبي يحي بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار فنزل بمرسى دانية وإستفرغ المدد بها) [1]إن حصار بلنسية قد إنتهى بسقوطها على يد الإسبان و بعودة إبن الأبار إلى تونس حيث تولّى فيها خطة الإنشاء و العلامة غير أن حياته ستنتهي هو أيضا بمأساة.[2]

وممن حرك خراب بلنسية بعد حصارها شاعريته نذكر كذلك إبن خفاجة فقال هذه الأبيات يرثيها:

عاثت بساحتك العدى يا دار * و محا محاسنك البلى و النار**

فإذا تردد في جنابك ناظر * طال إعتبار فيك وإستعبـار**

كتبت يد الحدثان في عرصاتها * لا أنت أنت و لا الديار ديار**

و قد رأى إحسان عباس أن قصيدة ابن خفاجة كانت أكثر أبياتا و لم يبق منها إلا هذه الأربعة أبيات، ذلك أن بلنسية كانت جزءا من معاهد الشاعر و عهوده و أمّ وطنه [3]

النموذج الثاني:يقول شاعر مجهول يرثي طليطلة في قصيدة مطلعها :

---

(1)ابن خلدون – المجلد السادس من كتاب العبر – ص 600 – طبعة بيروت 1959.

(2)نفس المصدر – ص 604 –

(3)إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي – دار الثقافة – بيروت 1971 ص. 186.

لثُكلكِ كيف تبتسم الثغور سرورًا بعدما سبيت ثغور

طليطلة أباح الكفر منها حماها إنّ ذا نبأ كبير

في هذه القصيدة التي بلغت سبعين بيتا تصوير لحال المسلمين عشية سقوطها وما أصابهم من ذل وصغار، كما تصور ماضيها المجيد وحاضرها المهين. وتنتهي بأمنية مشتهاة أن يخرج من أصلاب المسلمين بطلٌ كطارق بن زياد يعيد الأمر إلى نصابه :

ألم تك معقلا للدين صعبا فذلّله كما شاء القدير

وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير

وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير

مساجدها كنائس، أي قلب على هذا يقر ولا يطير

فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور

ثم تختتم القصيدة بهذه الأمنية:

الآ رجل له رأي أصيل به مِمّا نحاذر نستجير

يكُرّ إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كرور

ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح من هذا الخطير

النموذج الثالث: يقول أبو البقاء الرندي في أول القصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سلوان

إلى أن يقول:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيَّان؟

وأين قرطبة دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذبُ فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

وتختتم القصيدة بنغمة حزينة شجية تسفر عن الأسى العميق والتماس العظة والعبرة فيما حل بالأندلس:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان

نونية أبي البقاء الرندي فهي واسطة العقد في شعر رثاء المدن وأكثر نصوصه شهرة وأشدها تعبيرا عن الواقع. فهي ترثي الأندلس في مجموعها مدنا وممالك. فتصور ما حلّ بالأندلس من خطوب جليلة لا عزاء فيها ولا تأسٍ دونها وكيف ضاعت قرطبة دار العلوم، وأشبيليا مهد الفن، وحمص مهبط الجمال ، وكيف سقطت أركان الأندلس واحدة تلو الأخرى، وكيف أَقفرت الديار من الإسلام فصارت المساجد كنائس وغدا صوت الأذان صوت ناقوس؟!، ثم يهيب أبو البقاء الرندي بفرسان المسلمين عبر عدوة البحر إلى المسارعة لنجدة الأندلس والمسلمين.

ملاحظات منهجية حول رثاء المدن والمماليك(قراء في النماذج السابقة):

تحيلنا النماذج السابقة إلى القول دون تردد بأن قصيدة رثاء المدن في الأندلس تقطر بالشكوى من الأوضاع الفاسدة التي آل إليها أمر الحكام والوضع العام **ويمكننا أن نسجل الملاحظات التالية:**

الجهل بالمؤلف لعدد من القصائد: حيث أن عددا من قصائد رثاء المدن في الأندلس لشعراء مجهولين؛ ويُفَسَّرُ ذلك إما بخشيتهم من السلطان القائم بسبب نقدهم للأوضاع السياسية وإما أن عنايتهم بالحس الجماعي واستثارته كانت أكثر من عنايتهم بذواتهم الشاعرة

ثنائية الماضي والحاضر: يقوم هذا الرثاء على مقارنة بين الماضي والحاضر؛ ماضي الإسلام في مجده وعزه، وحاضره في ذله وهوانه. فالمساجد غدت كنائس وبيعًا للنصارى وصوت النواقيس أضحى يجلجل بدلا من الأذان، والفتيات المسلمات انتهكت أعراضهن، والدويلات المسلمة تستعين بالنصارى في تدعيم حكمها.

الحضور الديني المكثف: تتضمن نصوص الرثاء هاهنا بشعور ديني عميق يطفح بالحسرة والندم كان سقوط مدينة طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بداية المأساة؛ فهي أول بلد إسلامي يدخله الفرنجة وكان ذلك مصابا جللا هزّ النفوس هزًا عميقًا.

يستبطن ثاء المدن تلك الأنساق جوانب الثرية من التاريخ السياسي بين المسلمين والنصارى في الأندلس

كما **يستبطن** جانبا من النقد الذاتي الذي واجه به الأندلسيون أنفسهم حين أَدركوا أن الانغماس في حياة اللهو والترف أدى إلى سقوط راية الجهاد، وأن ملوك الطوائف حين حرصوا على ملكهم الفردي أضاعوا ملكًا أعظم. وما أصدق سخرية الشاعر المصحفي حين قال:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصدٍ فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

خاتمة :

إن العقد الناظم لرثاء المدن والمماليك في الأندلس هو نسق يدور حول سلبيات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد. وفق ها التصور فرثاء المدن لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة. وينبغي التأكيد ها هنا أن رثاء المدن في الأندلس لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب بل يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك وملوكها التي سقطت على يدي يوسف بن تاشفين المرابطي.

تحيلنا النماذج التي وقفنا عليها على طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس حيث كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين تجمع الصليبيون عازمين على طرد المسلمين وإخراجهم من الأندلس.

السؤال الإجمالي:

يقول ابن الأبار:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

هَبْ لهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسا

وَحاش مِمَّا تُعانِيهِ حُشَاشَتَهَا فَطَالَما ذَاقَتِ البَلوَى صَبَاحَ مَسَا

يَا للجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهلُها جَزَراً لِلحَادِثَاتِ وأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسا

فِي كُلِّ شارِقَةٍ إِلْمَامُ بَائِقَةٍ يَعُود مَأتَمُها عِندَ العِدَى عُرُسا

وَكُلِّ غَارِبَةٍ إِجْحَافُ نائِبَةٍ تَثْنِي الأَمَانَ حِذاراً والسرُور أَسَى

تَقَاسَمَ الرومُ لا نَالَتْ مَقَاسِمُهُم إِلا عَقَائِلَها المَحْجوبَةَ الأُنُسَا

وَفِي بَلَنْسِيةٍ مِنْها وَقُرْطُبَةٍ ما يَنْسِفُ النَّفسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسا

مَدائِنٌ حَلَّها الإِشْرَاكُ مُبْتَسِماً جَذْلانَ وارتَحَلَ الإِيمانُ مُبْتَئِسا

وَصَيَّرَتْهَا العَوادِي العَابِثاتُ بِها يَسْتَوحِشُ الطَّرْفُ مِنْها ضِعْفَ ما أَنِسا

فَمِنْ دَسَاكِرَ كانَتْ دُونَهَا حَرَساً وَمِنْ كَنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَها كُنُسا

يَا لِلْمَساجِدِ عَادَتْ لِلعِدَى بِيَعاً وَلِلنِّداءِ غَدَا أَثْنَاءَها جَرَسا

لَهْفِي عَلَيها إِلَى استِرجَاعِ فائِتِها مَدارِساً لِلْمَثانِي أصبَحَتْ دُرُسا

....

طهّر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا

وأملأ هنيئًا لك التأييد ساحتها جرْدًا سلاهب أو خطية دُعُسا

السؤال: قدم قراءة في النص مبينا الأنساق الفكرية التي يطرحها ؟

الجواب:

تحيلنا لغة النص عن حالة الفزع و الهلع منذ الكلمة الأولى ذلك أن المناسبة تقتضي الجد و التصريح دون مداراة أو تلميح فكأن القصيدة جميعا صرخة واحدة أراد بها اِبن الأبار و من خلاله الأندلسيون اِستنفار الأمير الحفصي. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن مرثية الشاعر ابن الأبار لمدينة بلنسية من المراثي المشهورة في الأندلس، فقد أرسل بها على لسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس.ويحكي هذا النص يأس أهل الأندلس من حكامهم المسلمين ومن ثم توجهوا لطلب النصرة من خارج الأندلس كما تصور حال بلنسية وقد تحولت المساجد إلى كنائس وفرض الكُفر سلطانه على الجزيرة وأن الذي أصاب بلنسية يوشك أن يصيب باقي المدن الأندلسية.

تعد قصيدة اِبن الأبار شهادة تاريخية على ذلك الحصار بالإضافة إلى كونها علامة إبداعية لما فيها من صدق الإحساس و براعة الاِلتماس فهي تعتبر أنموذجا لشعر الحصار في الأندلس و قد أدت الغرض من صياغتها وإنشادها حيث لبّى الأمير الحفصي مضمونها. فالقصيدة مثال تاريخي واضح وصحيح على قدرة الكلمة على الفعل و التأثير الملموس في مجريات الوقائع بالإضافة إلى تأثيرها الأدبي حيث عارضها شكلا و مضمونا عديد الشعراء بعده ... بل إن هذه القصيدة ما تزال قادرة على اِستلهام الواقع العربي المعاصر على مستويات عديدة.

الشاهد	الآليات
تَقَاسَمَ الرومُ لا نَالَتْ مَقَاسِمُهُم إلا عَقَائِلَها المَحْجوبَةَ الأُنُسَا **وَفِي بَلَنْسِيةٍ مِنْها وَقُرْطُبَةٍ ما يَنْسِفُ النَّفسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسا** **مَدائِنٌ حَلَّها الإشْرَاكُ مُبْتَسِماً جَذْلانَ وارتَحَلَ الإِيمانُ مُبْتَئِسا**	**اِستعمل اِبن الأبار التحريض لحثّ الهمة على الإسراع في النـ**
ملك تقلدت الأملاك طاعته دينا و دنيا فغشاها الرضى لبســا **مؤيد لو رمى نجما لأثبته و لو دعا أفقا لبّى و ما اِحتبســا** **كأنه البدر و العلياء حالته تحف من حوله شهب القنا حرســا**	**المعاني المدحية بما يتخللها من حماسة و فروسية**
و أربُعا غنمت أيدي الربيع بها ما شئت خلع من موشية و كســا **و حال ما حولها من منظر عجب يستوقف الركب أو يستركب الجلسا** **فأين عيش جنيناه بها خضرا و أين غصن جنيناه بها سلسـا**	**ثنائية الماضي والحاضر:ولم ينس الشاعر ذاته في خضم هذه ا فتذكر موطنه بلنسية بما فيها من جمال طبيعي و حنين لسالف العذبة بين مرابعها :**